حاكم السودان

في عهد الفراعنة

للدكتور ثابت زيدان

علاقة مصر بالسودان قضية قومية لشغل أذهان مصر ، ملكاً وحكومة وشعباً ، في هذه المرحلة التاريخية الدقيقة الراهنة ، كما شغلت أذهان قدماء المصريين من قبل في مختلف عصور مصر الزاهرة

وفي عرض تاريخ علاقة مصر بالسودان أيام الفراعنة من العظة ما يكاد يكفي لعلاج موقفنا الحاضر . وما أجل الماضي حين يحمل بين طياته الذكريات المشرفة للقضية المصرية السودانية . ولاتحاد شعب النيل ، وهذه العظة كما يتبين لنا من عرض التاريخ المصري القديم في العصور الفرعونية الزاهرة هي قوة مصر حين يلتف شعب الوادي حول عرش ملك مصر ، رمز الوحدة والاتحاد والقوة

سجل تاريخ مصر الفرعونية ان عصور وحدتها القومية ، والتفاف شعب الوادي حول العرش ، هو السبب الأول الذي حقق وحدة وادي النيل أيام الفراعنة والذي دفع مصر الفرعونية — في نواحي النشاط المختلفة والانتاج الفكري الى بلوغ ما وصلت اليه — من حضارة وعز ومجد

كان اهتمام الفراعنة قويًّا منذ فجر التاريخ للسعي الى توحيد أجزاء وادي النيل ، ويرجع هذا الى سببين أساسيين : أولهما العلاقة الطبيعية والحيوية ، والآخر العلاقة القومية والسياسية . فلقد تطورت العلاقات بين أجزاء الوادي بطبيعة الحال تطوراً تدريجيًّا حتى

وصلت الى ذروة الرابطة الوثقى ، وارتضى أهل الشمال والجنوب على وحدة وادي النيل تحت تاج ملك مصر

واستمرت العلاقات الطيبة بين الشمال والجنوب في عصر الوحدة حتى رأى الملك سنوسرت الأول حوالي سنة ١٩٥٠ قبل الميلاد ، ان من خير الوسائل لتحقيق الوحدة تعيين « حبجافي » ، حاكم أسيوط المصري الجنس ، حاكماً عاماً للسودان ، معتقداً بذلك اهتمامه بادارة شئون السودان ومؤكداً ان نفع السودان وخيره يرتكزان على الانضمام والاتصال ، لا البعد والانفصال . وبعد ثلاثين أجرى الملك سنوسرت تعديلاً في سائر الشئون التي تكفل النفع للقطرين ، فعدل النظام الاداري في مصر بتعيين وزير ثانٍ الى جانب الوزير الأول ، يختص احدهما بشئون الوجه البحري ، ويختص الآخر بشئون الوجه القبلي . واستمر ملوك عصر الوحدة الثانية بالاهتمام بمختلف وجوه النشاط المصري في السودان ، فمن مشروعات مائية ، الى عمرانية ، الى اقتصادية ، الى حربية فكانوا يبذلون كل ما في وسعهم من جهد لاسعاد السودانيين وتوفير كل خير لجنوب الوادي .

* * *

واستمرت هذه العلاقات الطيبة في أيام الفراعنة تزداد وتقوى بين الشمال والجنوب الى نهاية عصر وحدة مصر الثانية ، حتى شعر رجال الجيش وحكام الأقاليم بقوتهم ، فأخذوا يتمردون عن العرش ، وبدا بينهم من التشاحن والتنازع ما أدّى بطبيعة الحال الى ضعف مصر ، فداهمها العدو المعروف في التاريخ باسم « الهيكسوس » واستولى على جزء كبير منها

كان ذلك حوالي عام ١٧٣٠ قبل الميلاد وظل الأجنبي يستعمر مصر حوالي قرن ونصف قرن ، الى ان شعر المصريون بخطئهم ، وعرفوا ان التناحر على الحكم والانقسام وعدم الالتفاف حول العرش كان سبب نكبتهم وتفكك وحدتهم ، فقاموا قومة رجل واحد ، ملتفين حول الملك أحمس (بطل حرب الاستقلال في دورها الاخير) حتى تمكنوا من طرد المستعمرين الأجانب حوالي سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد

وعادت مصر ، للمرة الثالثة ، الى مجدها القديم ، وتبوأت مكانة عالية في المدنية

والحضارة العلمية والفنية ، كما بدأ نجم مصر الحربي يتلألأ من جديد ، بفضل وحدتها والتفافها حول مليكها

وبعد أن انتشت همة الاستعمار بطرد المحتلين ، وبعد وحدة مصر والتفاف شعبها حول عرشها ، نجد ان العلاقات بين مصر والسودان يتصل حبلها من جديد في صورة رائعة ، ونجد ان منصب حاكم السودان العام يعاد ويضاف الى شاغله لقب الأبن الملكي للسودان . وليست كلمة ابن هنا معناها ان يكون الحاكم حقًا من أبناء البيت المالك ، ولكن هذا اللقب في الواقع معناه ان حاكم السودان مقرّب من الملك ، وله شرف الاتصال بمليك الوادي . وفي هذا اللقب اشارة جلية الى اظهار عدم تفريق ملك الوادي بين مصر والسودان من جهة الحكم والادارة ، كما ان فيه شعوراً راقياً لاهل السودان بأن ملك مصر قد أوفد اليهم من هو في حكم ابنه ليدير دفة شئون السودان الشقيق

* * *

ويحدثنا تاريخ مصر الفرعونية بأن كل حاكم عام للسودان كان يعمل بادارته الحازمة على رخاء البلاد الشقيقة ونشر الأمن فيها . وذلك لأن من اختصاصه تصريف الشئون الادارية والاشراف على المسائل المالية والقضائية ، ومنها الاشراف على ان حلف اليمين يكون باسم ملك مصر .

وكان وجود منصب حاكم السودان العام على هذه الصورة ، وبهذا اللقب ، أقوى برهان على اعتبار السودان جزءا من مصر ، واعتباره أرضاً مصرية .

ولقد استمرت وحدة وادي النيل الثالثة مدة من الزمن في ود وصفاء ، فزادت الروابط الثقافية بين شمال الوادي وجنوبه ، وأصبحت مظاهر الوادي كله مصبوغة بصبغة واحدة هي الصبغة المصرية

فمصر هذه التي بلغت هذا الشأو منذ آلاف السنين ليس بكثير عليها ان يعيد الآن التاريخ نفسه في اجماع شعب الوادي مصره وسودانه على الالتفاف حول مليك الوادي فاروقنا المحبوب ، حفظ الله الملك لمصر ذخراً ، ولشعب الوادي قدوة وفخراً .